الأخلاق الإسلامية:
«تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»

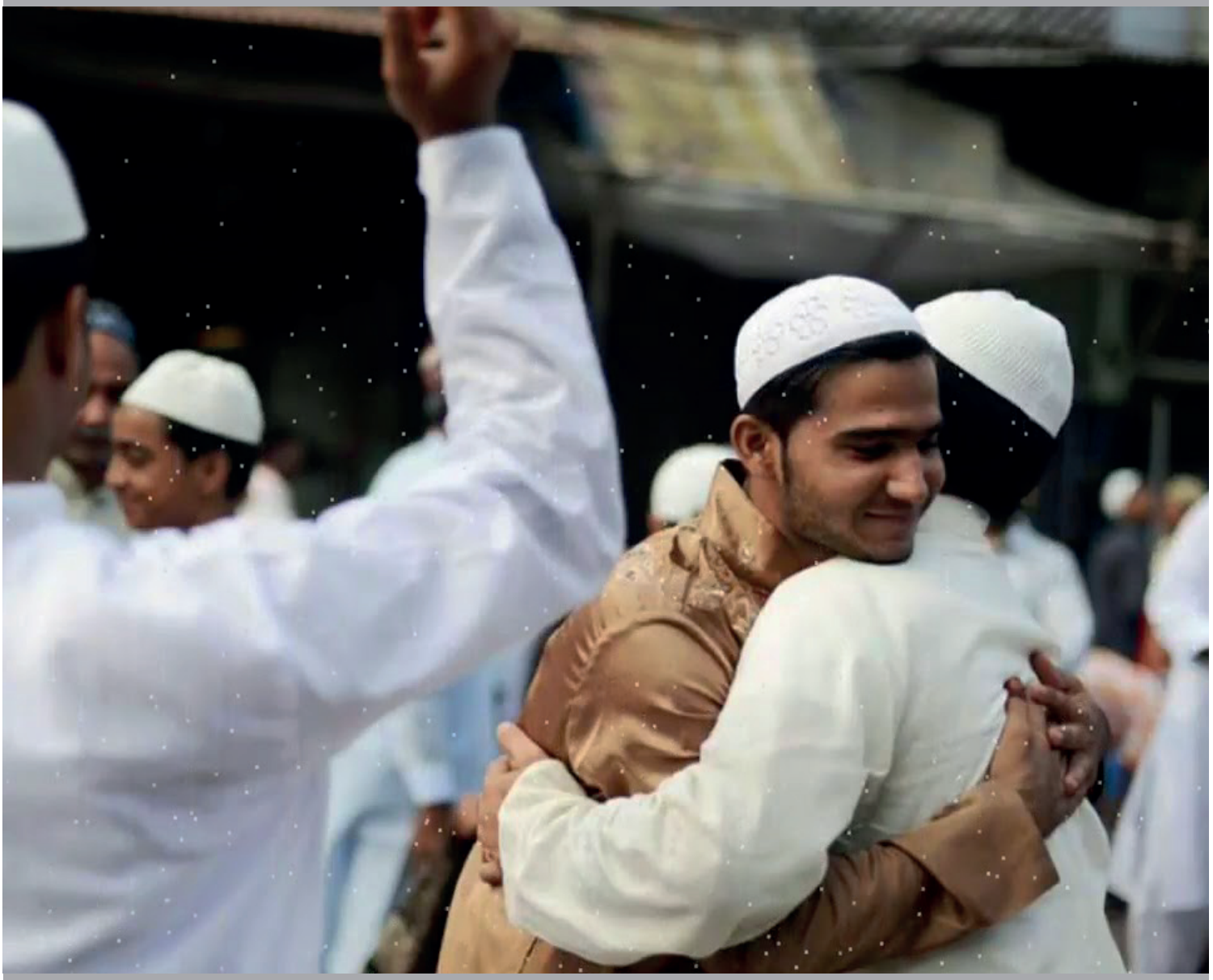

دوان روسَّل
ترجمة: جلّة سماعين

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

الأخلاق الإسلامية: «تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»[1]

دوان روسَّـــــلْ

ترجمة: **د. جلّة سماعين**

1 نشرت مقالة الكاتب على موقع "الصالون الفلسفي"، والذي تدعمه "مجلة لوس أنجلس لمراجعات الكتب"، وهو موقع مشهور من خلال النصوص الفلسفية التي يحتويها وأصحابها من أكبر الفلاسفة والمختصين.

أدرجت المقالة ضمن باب "نقاشات" بتاريخ 25 مارس 2019، وتحمل عنوان:

ISLAMIC ETHICS: ‘WE MUST COME TO COMMON TERMS’

رابط المقالة:

https://thephilosophicalsalon.com/islamic-ethics-we-must-come-to-common-terms/

ما الذي ينبغي أن نستخلصه من الهجمات المتكرّرة على المسلمين في كل أرجاء العالم؟ من هنا، يُفرض علينا أن نوجّه النقد إلى تلك الطريقة التي تركت التفكير العلماني الغربي يجدّد هيمنته العالمية من خلال وسائل الإعلام (بما في ذلك وسائل التواصل الاجتماعي) التي تستعمل أشدَّ أساليب الخداع (المكر) الممكن تصوّرها. لمواجهة هذه العالمية الخدّاعة التي تدّعيها الأخلاق العلمانية؛ فمن اللازم ألَّا نخشى من التصدّي إلى البحث داخل الخطاب الديني الإسلامي عن تشكيل عالميَّة حقيقيَّة: بمعنى، بدلاً من الحرص على الحفاظ على حصريات جماعة اجتماعيّة متميّزة، وبدلاً من بذل الجهد للارتقاء بها إلى حدود تتجاوز عندها ذلك التميّز وتُوهِم بالتسامح، فإن الأخلاق الدينية الإسلامية تبقى كفيلةً بأن تضع نقطة انطلاقٍ مشتركة للديانات الإبراهيمية جميعها.

لقد تمكّنت العلمانية، في تعايشها مع الإسلام، من أن تُنتج تفرّعًا لا مفرَّ منه، إذ إنها تخفي وراء ذلك التعايش صورةً من التّعصُّب غير معلنٍ عنها. وفي هذه الحالة، فإن الإطار العلماني يحجُب عنّا المواقف الإسلامية المحتملة البعيدة عن العلمانية، وهو ما يفرض علينا توخّي الحذر الكبير حتى لا نقع في فخّ افتراض أَنَّ عدم التوافق بين الموقِفيْن قوامُه بكل بساطةٍ حربٌ بين النسبية العلمانية والنزعة الأصولية العالمية. فالحاصل أن العلمانية ليست بطبيعتها "نسبيَّة"، كما أن الإسلام ليس بطبيعته "أصوليًا". فيمكن أن يوجد خطاب لا علمانيّ نسبيّ، ولا يحاول بالضرورة الارتقاء بنفسه إلى إطارٍ عالميٍّ، وأن يفرض في النهاية فكرته الخيالية الخاصة عن الاستثنائية. ويبقى الإسلام ضمن الخطاب العلماني دائمًا يشكل فكرة الاستثنائية، وتفكيك شيفراته يتمّ على اعتباره فاشيًا، أصوليّا، شموليًا أو أنه يتَّسم بطابع الهيمنة.

ومن ذلك، فإن ممارسة الخداع تكون على النحو التالي: إنَّ النسبيَّة العلمانية لا تخرج بأيِّ حالٍ من الأحوال عن إطار المشاكل المرتبطة بالعالمية المُهيمِنة. وعلى العكس من ذلك، فهي تنزع بالتحديد إلى أن تؤمّن لنفسها مكانةً عالميَّةً من خلال ادّعائها بالتسامح، ومن ثمَّ فتئت المشكلة الأولية تتجدَّد في صورةٍ خالصةٍ. وفي حالة اختبار النسبية من طريق مواجهتها بإطار عالميّ، يصبح قصورها حينئذٍ مكشوفًا، إذ إنه: 1) يمكن للنسبيّ أن يرتقي في شيءٍ من الهدوء بخطابه الخاص، ويُدرِج في الوقت ذاته الخطاب المنافس؛ أو 2) أنه يمكن للنسبي أن يسمح لخطابه الخاص أن يُدرَجَ ضمن خطابٍ عامٍّ منافسٍ، وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة النهائية هي عالمية جديدة؛ ذلك هو السبب الذي يجعل العلمانية تبدو كأنها تجاوزت مشكلة الأصولية، حتى وإن كانت الحقيقة تقول إن الأصولية العالمية الكامنة فيها قد تمَّ حجبُها، وأن مشاكلها [العلمانية] قد تفاقمت. ومن وجهة نظر إكلينيكية، نجد أننا نمتلك تسميةً لهذا المنطق الاستطرادي: "الإنكار المنحرف"

(Perverse Disavowal). وإن ما يسمّى بالأصولية الإسلامية نجدها، في جوهرها، لا تمارس هذا المنطق من الإنكار المنحرف.

ما نلاحظه في هذا الصدد، هو أنَّ المسيحية تعمل بصورةٍ أساسية وفق هذا الإنكار المنحرف (كما كان يؤكّد على ذلك سلافوي جيجك (Slavoj Žižek) لعدَّة سنواتٍ سابقة)؛ فالمسيحية هي الدين الإبراهيمي الوحيد الذي ينأى بنفسه عن نفسه ليحقّق له انبعاثًا عالميًا، إذ إن المسيحيين يؤمنون بأنَّ يسوع قد مات من أجل خطايا "كلِّ البشرية"؛ بمعنى موتٌ انتقل من فردٍ معيّنٍ يستهدف إحياء الجماعة بأكملها، جماعة "الروح القُدُس" العالمية؛ تلك هي القاعدة الذهبية التي نستخلصها من العهد الجديد إلى سفر اللاّويين وصولاً إلى "أحِبَّ قَريبَكَ" التي تعزّز لدى العديد من المسيحيين سلوك التسامح العالميّ، بينما نجد أن الخطاب الديني الإسلامي يشتغل وفق بعدٍ مختلفٍ تمامًا: فهو يبدأ في المقام الأول بقبول العالمية من طريق مفهوم التَّوحِيد، كما يتَّضح لنا ذلك في سورة آل عمران، الآية 64 "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ". فذلك إعلانٌ عن عالمية الاعتقاد الذي يحفظ في هذه الحالة انتشار الطوائف وتَركُّزها (تكثيفها). وفي الأخير، فإن اليهودية تكتشف من تحت قناعِ جارٍ متسامحٍ في الظَّاهر عدوانًا وحشيًا واضطهادا. الأمر الذي يجعل المسيحية في النهاية تتسامح مع الجار من خلال الارتقاء بنفسها عليه سرًا. أما الإسلام، فإنه يرفض فكرة الجار، حيث إنه يقبله في الأمّة المُسبَقة (a priori Umma) أي «جماعة المؤمنين». وبالنسبة إلى اليهودية، فهي ترى في باطن الجار شيئاً غريبًا، شيئًا غير مقبول حتّى داخل اليهودية نفسها.

ولاجتياز هذه المتاهة الثلاثية فيما يتعلق بسيدنا إبراهيم، قد يفرِض علينا العمل حتَّى لتشكيل نموذجٍ مثاليٍّ مبسَّط نساعد به أنفسنا. فانطلاقًا منه، سنلحظ كيف أن اليهود يجدون في شخصية الرسول الإنسان المسؤول عن إعادة اكتشاف الرَّب الذي سبق وأن مُنعت قوانينه (تشريعاته)، والذي، كمِثْل موسى، يتلقَّى الأوامر (ميثاق إبراهيم مثلاً)، وقد ترّتب عن ذلك رفض لعبادة الأصنام لا لشيءٍ إلَّا لأن الصورة تحجب الوظيفة (الوظيفة الرمزية الأساسية) لقانون الأب. ومن وجهة نظر علم التحليل النفسي، يمكننا أن نزعم أنَّ ذلك لمقدمَّة للّاوعي الرمزيّ الذي يجب تفسيره والكشف عنه. إذن، كانت تلك هي مهمّة فرويد الرئيسة. من ناحية أخرى، فإنَّ سيدنا إبراهيم يمثّل لدى المسيحيين أبَ كلّ أولئك الذين لديهم عقيدة، بعضّ النظر عن ختانهم (circoncision) أم لا. في هذه الحالة، فإننا نعثر في قصّة بولس على أن بولس قد أعلن عن الرسالة الأبلغ في «التسامح العالمي»، فـ «لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ». أما بالنسبة إلى الإسلام، فسيّدنا إبراهيم يمثل رسولاً واحدا من بين مجموعة من الرسل، حيث إن وجوده لهوَ إجلال بالقواسم المشتركة لكل الأديان.

إن قراءة كل ذلك بمصطلحات التحليل النفسي ستُطلعنا كيف أن اليهودية وجدت لها أبًا رمزيًّا (نقش القانون)، ووجدَت المسيحية لها أبًا متخيّلًا (الذي تمت التضحية بجسده وبعدها أُبتُعِث)، بينما وجَد الإسلام الأب الحقيقي، والذي هو في حقيقته، بالمعنى اللاّكاني (نسبةً إلى الفيلسوف جاك لاكان)، ليس هو بأبٍ على الإطلاق. وما هو مؤكّد، أن العديد من المسلمين يرفضون استخدام كلمة «الأب» التي من شأنها أن ترسم في الأذهان هيئةً جنسانية كما تتجلى صورتها في العالم الحالي؛ ذلك هو الاعتبار الذي يجعل إحدى الشخصيات المشهورة، مثل ذاكر نايك (Zakir Naik) يأتي على ذكر الله (سبحانه وتعالى) شعبيًّا على أنه (غير مخلوق). فالربُّ الحقيقيُّ في الإسلام هو ما تُعرِّفه كذلك سورة قاف في الآية 16: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»، وهي بلا شكٍّ لتُعيد إلى أذهاننا عبارة جاك لاكان التي يتمُّ دومًا الاستشهاد بها، والتي تقول بأن اللاّوعي «فيكَ أكثرُ منك»، غير أنه لدينا في هذه المرَّة متاهة إضافيَّة: فنحن لا نتعامل مع الوعي الرمزي كما هو موجود في اليهودية، ولا مع الوعي المتخيّل كما في المسيحية. إذن، فكيف لا نجد في هذه الحركة حركةً من لاوعيَ فرويد (الرّمزي) إلى لاوعيَ لاكان (التخيّلي، «كن حذرًا من الصورة»)، نحو الوعي «الحقيقي» كما كان قد طرحه جاك آلان ميلر «والمتأخّر» لاكان؟ إنّنا أمام حركةٍ لملحدٍ يهوديٍّ يدعى فرويد، إلى ملحدٍ مسيحيٍّ يدعى لاكان، وأخيرًا، نحو اتجاه إسلاميٍّ جديدٍ.

ربّما قد تكون اليهودية هي الرابطة الدينية الاجتماعية الوحيدة التي قبِلت قانون الأب؛ فقد آثرت هذا الاختيار في مقابل المُتعَة التي مثّلها «الصوت المُرعِد للربّ»، حيث بقيت بعيدة على مسافةٍ من سفح جبل سيناء. ومع ذلك، كان هناك على الأقل شخصٌ واحدٌ قد صعد إلى قمّة الجبل وجلب للجماعة القانون الرمزي: إنّه موسى؛ معنى ذلك أن الجماعة العالمية تتطلّب على الأقل شخصًا واحدًا من أجل أن ترسِّخ نفسها. وبالمناسبة، فإنه يُسمح، في إطار البنية الاستطرادية لليهودية، بالإلحاد شريطةَ أن يكون المرء يهوديًّا بالفعل. أما بخصوص المسيحية، فهي تعمل من خلال ازدواجية ذاتية؛ فجماعة المسيحيين، المجمّعين (المتجسِّدين في «الروح القدس»، موجودة كمخلّفات ناتجة من تلاقي الربّ الرمزي مع صورته، وذلك، بالضبط، هو ما يشكّل هيكل الثالوث. من ثمّة، فإن الموضوع المسيحي يعدّ اختزالاً ل «الغرض (المسمى) بألف الصغيرة objet petit a» إذ بُني المعتقد على أساس لحظةٍ سابقةٍ من الشكّ الجذريّ، وهو موضوعٌ يظهر لنا بوضوح في سرديّة «ليلة الروح القاتمة» أين يُواجه الاعتقاد الناقص بموجةِ شكٍّ متطرّفة. وعلى الرغم من تحقّق إمكانية التخلص من هذا الشكّ، إلاّ أنه يُعاود الظهور مرّة أخرى في في تلك اللحظة الإلحادية التي يتكلّم فيها يسوع المسيح من على الصَّليب قائلاً: «يا ربُّ؟ يا رب؟ لماذا تركتني؟» (E'li, E'li, la'ma sabachtha'ni,). إنه فقط بعد نطق يسوع بهذا التَّعبير المليء بالشكّ المتطرّف يصبح مُنبَعثًا في صورة أكثر عالميّة.

وفي الأخير، فإن الإسلام يعمل من خلال منع حالة الأب الرمزيّ للقانون، والتي ترجع، بعد ذلك، إلى «الحقيقي» الموجود في اللغة الإسلامية ذاتها: كاللغة العربية (فالمؤكّد أنه يشترط على المرء، باعتباره مسلمًا، التكلّم باللغة العربية حين يرغب في أداء الصَّلاة)؛ وذلك ما يؤدّي إلى الإقحام المفاجئ للدلالات الذكورية (phallic signifiers) ضمن اللّغة، وإلى انتشارٍ معيّنٍ للأسماء، حيث إنه لا يوجد لله 99 اسمًا فقط، ولكن نجد له أسماءً أخرى تتضمنها التعبيرات اليومية التي لا تعدّ ولا تحصى، والمستخدمة بعفويّةٍ في اللغة العربية من نحو: "إن شاء الله"، "الحمد لله"، "ما شاء الله"... إلى غير ذلك. في هذه الحالة، فإن الإلحاد مسموحٌ به في الإسلام لكن فقط في حالة ربطه بصيغة الماضي. وبناءً على ذلك، نلاحظ أنَّ الشهادة تتضمن "لا إله إلا الله، محمَّدٌ رسول الله" في جملتها الأولى قول إلحادٍ، يتبعه اعترافٌ أو شهادة بالإيمان الذي يبني من جديد [بأثرٍ رجعيٍّ] المعتقد. والنتيجة، هي أن الإسلام يجسّد هنا دين ما بعد الانقلاب (après-coup)؛ أي بما أسماه فرويد "الفِيمَا-بَعْدِيَّة" (afterwardness)، فالقرآن لا يُعتقد فقط أنّه "الفصل الأخير" في كتب الديانات الإبراهيمية، ولكنّه يعيد كتابة ويعيد قراءة كلّ ما سبق.

هذا، ويمكن تلخيص مشكلة الاستجابات للحوادث المروّعة التي وقعت في نيوزيلندا، أو تلك التي شهدتها مدِينَتِي بيتربورو أنتاريو (كندا) حين تمّ قبل بضع سنوات تفجير مسجدٍ، على النحو التالي: تُقدَّم إيديولوجيا العلمانية بمساواةٍ ظاهرةٍ أو بتماثل للمصطلحات دون إشراكٍ مناسب للاختلافات الموجودة على مستوى الخطاب، إذ إننا نُلفي وجود مشكلتين متزامنتين: أوّلاً، أن العلمانية الظاهريّة وموقف التسامح اللَّذين يعملان على تأكيد القبول بوجهات نظرٍ متعدِّدة أو بأصوات مختلفة يُحدثان في النهاية تعصُّبا متأصّلاً (كامنا) تجاه الإسلام؛ وذلك بسبب كون القبول، من حيث التعريف، غير إسلاميّ. ومن وجهة نظر بنيوية، تَعتَبِر العلمانية التَّسامحَ من المبادئ المسيحية، غير أن المشكلة التي تبرز من جديد هي كون الخطاب الديني الإسلامي نفسه غير متسامحٍ مع العلمانية (عدم التسامح تجاه مبدأ التسامح)، وهو ما دفع ذاكر نايك إلى تقديم الحجّة التالية[1]: "الإسلام هو الدين الأكثر علمانية باعتباره الأكثر تسامحًا، غير أن التَّسامح الذي نمارسه هو أيضا تسامحٌ صادقٌ، حيث يمتلك كثير من الناس الإحساس بأن التسامح [وفق هذا المبدأ] يفرض عليك أن يكون لديك اعتقادٌ متسامحٌ في الديانات الأخرى. إذن، فما يمكنني أن أشير به إليهم هو أننا نحتاج إلى التسامح والحقيقة في آن معًا. [دعونا نفترض أنه] إذا ادّعى شخص ما أنَّ 2+2=5 في حين أنه يوجد شخص آخر يدّعي أن 2+2=4، في هذه الحالة لا يعني التسامح أنه بإمكاني القول إنّ كليهما على حقّ. لذلك، فالتسامح الحقيقي هو القول بأن 2+2=4. فأنا لا يمكنني أن أوافق على أن 2+2=5 [...] إذ من واجبي كمسلمٍ تصحيح المفهوم الخاطئ.

1 انظر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=76rTX0CYxSU

لذلك، فما نؤكدّه، من وجهة نظر فلسفية، هو أن جميع أشكال التَّسامح يجب عليها أن ترتكز على شكلٍ من أشكال العالمية بدلاً من النسبية. فنحن نجد أن الإسلام يقدّم نفسه على أساس عالميّة المعتقد، في حين أنَّ العلمانية تقدّم نفسها كنسبيّة فيما يتعلق بالمعتقد. وفي منظور العلماء المسلمين، يشير ذلك في العادة على وجود حقيقة عالمية، حقيقةٌ بالرغم ذلك هيَ متسامحة تجاه المفاهيم الخاطئة نسبيّا أو تجاه تلك التشوّهات التي تعترض هذه الحقيقة. وللمفارقة، فإن التسامح الحقيقي يتشكَّل من اجتناب صميم فكرة التسامح العلماني.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019